الفصل السابع

وسطية القرآن

في

القضاء والقدر

الفصل السابع
وسطية القرآن فى القضاء والقدر

تمهيد :هذه مباحث فى باب القضاء والقدر، ذلك الباب العظيم، الذى لا شك فى أنه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها، فهو أحد أركان الإيمان الستة التى وردت فى حديث جبريل-عليه السلام-ولا يؤمن إنسان على الحقيقة حتى يؤمن به، فالإيمان به تمام التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما (القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده).(١)

(والقدر هو قدرة الله، كما قال الإمام أحمد رحمه الله).(٢) فالذى يكذب به مكذب لقدرة الله - عز وجل-ومما يدل على اهميته ما يترتب على الإيمان به من عظيم الثمرات على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا وفى الآخرة، ومما يدل على اهميته أن كتب العقيدة اهتمت به أيما اهتمام، واطالت فى ذكره، والحديث عنه كالإبانة لابن بطة، والشريعةللآجرى، وشرح أصول اعتقاد اهل السنة والجماعة للالكائى، والحجة فى بيان المحجة للأصبهانى وغيرها.

ففهم هذا الباب على الوجه الصحيح والإلمام به - ولو على سبيل الإجمال - من الأهمية بمكان، وقد جاء هذا الباب فى القرآن الكريم واضحاً وشرحه النبي ﷺ أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه فكانوا رضوان الله عليهم أعظم الناس فهماً لحقيقة الإيمان بالقدر، فاثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس، وأكرمهم، وأتقاهم، ثم دب فى هذه الأمة داء الأمم، وقد ركبت سنن من كان قبلها، فدخلت الفلسفات اليونانية والهندية وعقائد اليهود المحرفة والنصارى الزائغة إلى بلاد المسلمين، وظهرت بدعة القدرية فى البصرة ودمشق، فوقع أول

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية :٣/ ١١٣.

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١ / ١٣٥ .

شرك في الأمة وهو نفي القدر، فتصدى علماء السنة لتلك البدعة وبينوا عوارها ودحضوا باطلها وأظهروا الحق ونشروه.

ومما لا شك فيه أن باب القدر - أعوص أبواب العقيدة، فلقد حار النظار والعقلاء قديماً وحديثاً - في شأنه وفي فهم حقيقته، فلم يصلوا إلى اليقين والصواب، ذلك لأنهم التمسوا الهدى في غير مظانه، فحاروا وحيروا، وتعبوا وأتعبوا. وقد وفق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب وذلك لاتباع ما جاء في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهماً صحيحاً - إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة - سلف هذه الأمة الصالح وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ انتظم العقد في هذا الباب وظهرت ملامح الوسطية فيه وسلمت من الإفراط والتفريط والغلو والجفا والبعد عن الصراط المستقيم، وتجد القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشرى أن يجول فيها في هذا الباب وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها.

فالأمور التي يستطيع العقل البشرى أن يجول فيها ويفهمها من منطق النصوص، كالبحث في مراتب القدر وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد إلى غير ذلك من مباحث القدر.

والأمور التي نهانا الشرع عن الخوض فيها مثل: الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل، والاعتماد في معرفة القدر على العقل البشرى القاصر بعيداً عن هدى الكتاب والسنة؛ لأن العقل البشرى لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل، وكذلك البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، وكذلك التنازع في القدر الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه وافتراقهم، فهذا مما نهينا عنه. وبذلك يتضح للباحث منهج الوسطية في هذا الباب إذا ألم بأطراف الموضوع، معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

المبحث الأول

تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما

أولاً: القدر فى اللغة: (مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكن داله).(١)

قال ابن فارس: (قدر: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا أى مبلغه، وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره وأقدر من التقدير).(٢)

والقدر: محركة: القضاء والحكم، وهو ما يقدره - عز وجل - من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية والتفكير فى تسوية أمر، والقدر كالقدر، وجميعها جمعها أقدار.(٣)

والقدر فى الاصطلاح: (تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته).(٤)

أو هو: (ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن وأنه - عز وجل قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون فى الأزل، وعلم - سبحانه وتعالى - أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده - تعالى - وعلى صفات مخصوصة، فهى تقع على حسب ما قدرها).(٥)

ثانياً: القضاء فى اللغة:

أ - القضاء فى اللغة: (هو الحكم والصنع، والختم، والبيان، وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه فيكون بمعنى

---

(١) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير، : ٤ / ٢٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والدال. ٥ / ٦٢.

(٣) القاموس المحيط فصل القاف مادة قدر: ٥٩١.

(٤) رسائل فى العقيدة للشيخ ابن عثيمين: ٣٧.

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفارينى: ١ / ٣٤٨.

الخلق).(١)

ب - العلاقة بين القضاء والقدر:

١ - قيل: (المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: ١٢] أى خلقهن، فالقضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه).(٢)

٢ - وقيل العكس: (فالقضاء هو العلم السابق الذى حكم الله به فى الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضى السابق).(٣)

قال ابن حجر العسقلانى: (وقالوا أى العلماء: القضاء هو الحكم الكلى الإجمالى فى الأزل، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله).(٤)

٣ - قيل: إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل منهما مدلول بحسب ما مر فى القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.(٥) وقوله تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ [التوبة: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨] وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبى ﷺ عن أبناء المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».(٦) وقال ﷺ: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار».(٧)

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والضاد: ٥ / ٩٩.

(٢) النهاية فى غريب الحديث: ٤ / ٧٨.

(٣) البخارى مع الفتح، كتاب القدر: ١١ / ٤٨٦.

(٤) انظر: الدرر السنية فى الأجوبة النجدية: ١ / ٥١٢، ٥١٣.

(٥) البخارى مع الفتح، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين: ١١ / ٥٠٢، رقم الحديث: ٦٥٩٧.

(٦) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمى: ٤ / ٢٠٣٧، رقم الحديث: ٢٦٤٧.

(٧) مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى: ٤ / ٢٤٤، رقم: ٢٦٥٣.

المبحث الثانى
الإفراط والتفريط فى باب القدر

قد ضل فى باب القدر فرق شتى من الناس، ومنشأ ضلالهم اتباعهم للهوى ونظرهم إلى النصوص بعين عوراء، فيأخذون ما وافق أهواءهم، ويعمون، أو يتعامون عن غيره ومن أشهر الفرق التى ضلت فى هذا الباب ما يلى :

١ الفلاسفة :

الذين أنكروا (علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا: إنه يعلم الأشياء على وجه كلى ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً، فإن كل ما فى الخارج هو جزئى) .(١) وقد تأثر اليهود والنصارى بالفلسفة القديمة وتجد فى كتبهم المحرفة ما يفيد إنكار علم الله تعالى كما فى سفر التكوين(٢) حيث زعم اليهود أن الله تعالى :(لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بنى إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم) .(٣) وأما النصارى جعلوا المخلوق إلهاً ونفوا عن إلههم أن تكون له إرادة ومشيئة وعلم بما يحصل له أو لمخلوقاته تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً (٤) وهذا بسبب بعدهم عن الكتب المقدسة الصحيحة وتأثرهم بالفلسفات الباطلة ويكفى فى الرد عليهم قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .[الأنعام : ٥٩] .

٢ من يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج :

كحال الذين ينظرون فى النجوم والأسماء، ليستطلعوا من خلالها أسرار

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ٩ / ٣٩٧ .

(٢) سفر التكوين إصحاح ١٢ فقرة : ١٢ ، ١٣ .

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٢٤٩ .

(٤) الحكمة فى الدعوة إلى الله : ٤٤٤ .

القدر، فتجدهم يقولون: إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو كان يحمل الاسم الفلاني فسيصيبه كذا وكذا في يوم كذا وكذا، ومما يقولون - أيضاً - من اسمك تعرف حظك، ومن شهر ميلادك تعرف حظك، ونحو ذلك من هذا الهذيان والتخرص والرجم بالغيب، فهذا ضلال في باب القدر؛ لأن القدر غيب والغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل.

٣ - غلاة الصوفية:

الذين غلوا في الجبر: (ممن يزعمون الترقي في مقام الشهود للحقيقة الكونية، والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها تجري وفق ما قضاه وقدره الله وقدره، وكل ما قضاه وقدره فهو محبوب لديه، مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشارع بارتكابه هذه المحظورات - فقد أطاع إرادة الله، ونفذ مشيئته، فمن أطاع الله في قضائه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله).[١] (ومن ثم فلا لوم، ولا تثريب، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل، واليهود والنصارى والمجوس).[٢]

كما صرح بذلك ابن عربي[٣] الصوفي بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه دان

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

أدين بدين الحب أنى توجهت ... وألواح توراة ومصحف قرآن

وبيت لأوثان وكعبة طائف[٣] ... ركائبه فالحب ديني وإيمان[٤]

---

(١) شرح نونية ابن القيم، للهراس: ١/ ٣٧٢.

(٢) المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبده، طارق عبد الحكيم: ٥٨.

(٣) هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد العربي الحاتمي الطائي المعروف بمحيي الدين بن عربي شيعي سوء كذاب من أهل وحدة الوجود قال أشياء منكرة عدها المحققون مروقاً وزندقة، مات سنة ٦٣٨هـ، انظر: ميزان الاعتدال: ٣/ ٦٥٩، رقم ترجمته: ٦٦٠.

(٤) رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي الصوفي، د/ موسى الدويش: ٧٤.

وكقول عبد الكريم الجيلى [١]، وهو من أهل وحدة الوجود:

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى ... ومالى عن حكم الحبيب تنازع

فطوراً ترانى فى المساجد راكعاً ... وإنى طوراً فى الكنائس راتع

ذا كنت فى حكم الشريعة عاصياً ... فإنى علم الحقيقة طائع [٢]

وكما قال أحدهم:

أصبحت منفعلاً بما يختاره ... منى ففعلى كله طاعات

وهذا المذهب من أخبث المذاهب، ولا يشك بكفر أصحابه، بل هو من أقبح أنواع الكفر، قال ابن تيمية رحمه الله: (فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور، والمحظور، والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة، وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده إبليس وآدم سواء، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء).[٣] فلا يشك عاقل فى كفره.

٤ - الجبرية:

(وهم الذين غلوا فى إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل - حقيقة لا بل هو فى زعمهم لا حرية له ولا فعل، كالريشة فى مهب الريح، وإنما تسند إليه الأفعال مجازاً، فيقال: صلى وصام، وقتل، وسرق، كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم

---

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلى، ابن سبط عبد القادر الجيلانى، من علماء المتصوفة له كتب كثيرة، منها الإنسان الكامل، والمناظرة الإلهية، توفى عام ٨٣٢هـ انظر: الأعلام للزركلى: ٤/ ١٧٥، ١٧٦.

(٢) هذه هى الصوفية عبد الرحمن الوكيل: ٩٦.

(٣) مجموع الفتاوى: ٨/ ١٠٠.

عليه ومجاراتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث فى تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة فى الأمر والنهى ألا ساء ما يحكمون) (١).

وهؤلاء فى الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقى لأفعالهم، بخلاف ما عليه أهل السنة، الذين يقولون: إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب، وهؤلاء - الجبرية - يسمون بالقدرية المشركية؛ لأنهم شابهوا المشركين فى قولهم: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾.[الأنعام:١٤٨] وهذا كلام ظاهر البطلان.

٥ - القدرية:

وهم أتباع معبد الجهنى (٢) وغيلان الدمشقى (٣)، وأتباع واصل بن عطاء(٤)، وعمرو بن عبيد (٥) من المعتزلة، ومن وافقهم، هؤلاء هم القدرية، وقولهم فى القدر: إن العبد مستقل بعمله فى الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى، وقدرته فى ذلك أثر، ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما

---

(١) انظر: شرح نونية ابن القيم للهراس: ١ / ٣٧٢.

(٢) هو المبتدع القدرى معبد بن عبد الله بن على الجهنى البصرى أول من قال بالقدر وكان ممن سمع الحديث عن ابن عباس وعمران بن حصين وانتقل إلى المدينة ونشر مذهبه فيها، وكان قد تلقاه من رجل نصرانى يسمى سوسن، وأخذ عن معبد غيلان الدمشقى قتله عبد الملك بن مروان وصلبه سنة ٨٠هـ الكامل لابن الأثير: ٤ / ٧٥.

(٣) هو غيلان بن مسلم الدمشقى أبو مروان من البلغاء الذين أضلوا الناس، ثانى من تكلم فى القدر ودعا إليه، وإليه تنتسب فرقة الغيلانية من القدرية، أفتى الإمام الأوزاعى بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ البداية والنهاية: ٩ / ٣٤، ٣٥.

(٤) واصل بن عطاء البصرى، الغزال المتكلم البليغ المتشدق، الذى كان يلثغ بالراء فلبلاغته هجر الراء وتجنبها فى خطابه، قال عنه أبو الفتح الازدى: رجل سوء كافر كان من أجلاء المعتزلة مات ١٣١هـ انظر: ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٢٩.

(٥) عمرو بن عبيد بن باب، أبو عثمان البصرى المعتزلى القدرى، اعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه، سموا المعتزلة وكان يشتم الصحابة ويكذب فى الحديث وهما لا تعمد، مات سنة ١٤٣هـ انظر: ميزان الاعتدال: ٣ / ٢٧٣.

العباد هم الخالقون لها ويقولون: (إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة،وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون بمشيئته الشاملة، وقدرته النافذة؛ ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين: إله النور: وهو خالق الخير، وإله الظلمة: وهو خالق الشر.

والقدرية جعلوا لله شريكاً، بل شركاء فى خلقه فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم، واستدلوا استدلالاً أعوراً ببعض الآيات، كما فى قوله - تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾[التكوير:٢٨].

وقوله: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[الكهف:٢٩].

وأوّلوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم كما فى قوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربُ العالمين ﴾[التكوير:٢٩] ومنشأ ضلال هؤلاء فى البداية أنهم أرادوا تنزيه الله - عز وجل - عن الشر فوقعوا فى نفى القدر، ويكفى فى الرد عليهم قوله - تعالى: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[الصافات:٩٦].

المبحث الثالث

ظهور بدعتى نفى القدر والقول بالجبر

فى أواخر عصر الصحابة رضوان الله عليهم، كانت البداية الحقيقية لنشأة الاختلاف والكلام فى القدر، إذ نبغ فى وقتهم معبد الجهنى الذى قال بنفى القدر، كما روى الإمام مسلم عن يحيى بن يعمر (١). قال: (كان أول من قال فى القدر بالبصرة: معبد الجهنى، ثم ذكر يحيى أنه لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم (٢) ... وإنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف (٣).

فقال ابن عمر منكراً عليهم ذلك: فإذا لقيت ذلك فاخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر :لو أن لأحدهم مثل احد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر (٤).

ومعبد إنما تلقى هذه المقالة عن رجل نصرانى كان قد أسلم ثم تنصر مرة أخرى، فكان معبد أول من نشر ذلك ونادى به وأظهره، ولاسيما بالبصرة قال الإمام الأوزاعى (٥) رحمه الله: (أول من نطق فى القدر رجل تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد). (٦)

---

(١) يحيى بن يعمر البصرى نزيل مرو وقاضيها ثقة فصيح، وكان يرسل، مات قبل المائة انظر: ابن حجر التقريب: ٢/ ٣٦١.

(٢) يطلبونه ويتتبعونه.

(٣) أنف: أى مستأنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله وإنما يعلمه بعد وقوعه انظر صحيح مسلم شرح النووى: ١/ ١٥٦.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان: ١/ ٣٦.

(٥) هو الإمام العابد الحجة الثقه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى الفقيه روى عن كثير من التابعين و كان راسا فى العلم والعمل والاتباع، بارعا فى الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل توفى فى بيروت سنة ١٥٨هـ انظر: تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٣٨ ،شذرات الذهب: ٤/ ٣٤١.

(٦) الآجرى الشريعة: ٣٣٤٣، اللالكائى: ١/ ٣٤١.

فهؤلاء هم أقطاب القدرية الأوائل، وكان مذهبهم فى القدر يدور على أمرين: أحدهما: نفى علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها. والثانى: نفى خلقه لأفعال العباد، وأنها ليست واقعة بقدره، وهؤلاء هم غلاة القدرية الأوائل، وقد انقرض مذهبهم، والمتأخرون منهم يثبتون علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها ونفوا خلقه لأفعال العباد.

قال القرطبى رحمه الله: (قد انقرض هذا المذهب، أى مذهب غلاة القدرية ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين، قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بافعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف فى زعمهم بان افعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهب باطل أخف من الأول).(١)

وهذا المذهب هو الذى تبنته المعتزلة وجعلته اصلاً من أصولها التى قام عليها كيان الاعتزال، وبسبب قولهم به عرفوا بالقدرية لنفيهم القدر، وفى مقابل القول بنفى القدر، ظهر قول مضاد ومعاكس له وهو القول بالجبر، ومضمونه: ان الإنسان مجبور على أفعاله ،وأنه لا يقدر منها على شيء فهو كالريشة فى مهب الريح. وأول من عرف عنه القول بذلك فى الإسلام الجهم بن صفوان (٢)، الذى كان من مقالته: (أنه لا حد فى الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل وان الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك، وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله – سبحانه ...).

ومن خلال مقالتى الطائفتين، يتبين لنا أن القدرية النفاة مفرطون فى هذا الباب، مقتصرون فيه بما سلبوا الله قدرته، وقولهم: إن العباد هم الخالقون لافعالهم، كما يتضح لنا مدى غلو الجهمية الجبرية فى إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان مشيئته وإرادته وعدوه بمنزلة الجماد، وأنه لا فعل له فى الحقيقة، وانه

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق: ٣٧١.

(٢) جهم بن صفوان السمرقندى أبو محرز من موالى بنى راسب راس الجهمية الضال المبتدع هالك فى زمن صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً. انظر: ميزان الاعتدال: ١/٤٤٦.

مجبور على أفعاله غير مختار فيها، وكلا الفريقين من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد. فكل منهما قد اخطأ، وضل فى هذا الباب، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون مع كل منهما بعض الحق والصواب، لكن الحق المحض والصواب المحض ليس هو فى قول واحد منهما، وإنما هو فى قول خارج عن قولهما جمع ما عند كل من الفريقين من حق وصواب، وخلا مما وقع فيه الفريقان من خطأ وضلال، ذلك هو قول أهل السنة والجماعة فى هذا الباب، الذى هو حق بين الباطلين، وهدى بين الضلالتين، به كانوا وسطاً بين إفراط وتفريط الفريقين فى هذا الباب، كما سنوضح ذلك فى الصفحات القادمة.

المبحث الرابع

مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة فى باب القدر

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - سؤالاً عن القدر فأجاب عنه إجابة مطولة ضمنها مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة فى هذا الباب ومما قاله:

(مذهب أهل السنة والجماعة فى هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء، وربه ومليكه، وقد دخل فى ذلك جميع الأعيان القائمة بها، من أفعال العباد، وغير أفعال العباد. وأنه - سبحانه - ما شاء كان، وما لم يشا لم يكن، فلا يكون فى الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه - سبحانه - يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقد دخل فى ذلك أفعال العباد وغيرها، وقدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون).[١]

إلى أن قال: (وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منتهيون عما نهاهم عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده، ووعيده الذى نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله فى واجب تركه، ولا محرم فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده)[٢].

وقال: (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها - مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشا لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدى من يشاء - أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله[٣] كما قال تعالى: ﴿ كلا إنه تذكرة (٥٤) فمن شاء ذكره (٥٥) وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾. [المدثر: ٥٤-٥٦].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٨/ ٤٤٩، ٤٥٠. (٢) المرجع السابق: ٨/ ٤٥٢. (٣) المرجع السابق: ٨/ ٤٥٩.

المبحث الخامس

الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل في باب القدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان: الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أولاً: من القرآن: أما الأدلة من القرآن العظيم: فكثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾. [الأحزاب: ٣٨] وقال تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾. [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾. [الفرقان: ٢].

ثانياً: السنة: أما الأدلة من السنة: فكما قال عليه الصلاة والسلام، كما في حديث جبرائيل عليه السلام: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**».(١)

وروى مسلم في الصحيح عن طاووس (٢) قال: (أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز.(٣)

وقال ﷺ: «**وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**».(٤)

ثالثاً: الإجماع: أما الإجماع: (فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله).(٥)

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: ما جاء في القدر: ١/ ٣٨ رقم ٨.

(٢) هو الإمام التابعي طاووس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن الجندي، أحد الأعلام علما وزهدا وعملا أخذ عن جماعة من الصحابة وأخذ عنه جماعة توفي سنة ١٠٦هـ العبر: ١/ ٩٩ انظر: تهذيب التهذيب: ٥/ ٨.

(٣) مسلم، كتاب القدر، باب: كل شيء بقدر: ٤/ ٢٠٤٥ رقم: ٢٦٥٥.

(٤) مسلم، كتاب القدر، باب: الأمر بالقوة وترك العجز: ٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

(٥) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد: ٣٦

فرابعا: الفطرة: أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً ولم ينكره إلا الشواذ من الأمم، ولم يقع الخطأ فى نفى القدر وإنكاره، وإنما وقع فى همه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال سبحانه عن المشركين: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ .[الأنعام:١٤٨].

فهم أثبتوا المشيئة لله لكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بين سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم، كما فى قوله: ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ .[الأنعام:١٤٨] وكانت العرب فى الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف، وهذا ما نجده مثبوتا فى أشعارهم، كما فى قول عنترة (١):

يا عبل أين من المنية مهربى ... إن كان ربى فى السماء قضاها (٢)

وكما فى قول طرفة (٣):

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد (٤) ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد (٥)

وقول لبيد (٦):

صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها (٧)

خامساً: العقل: أما دلالة العقل فهى: أن العقل الصحيح يقطع أن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة، إذ الموجود صدفة ليس له نظام فى أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟ فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شىء فى ملكه إلا وقد شاءه وقدره.

---

(١) هو عنترة بن شداد العبسى من شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات اشتهر بشجاعة فائقة واشعار نادرة انظر: شرح المعلقات للزوزنى: ١١٨ (٢) ديوان عنتره: ٧٤.

(٣) هو طرفة بن العبد بن سفيان من شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات قتل وهو ابن عشرين عاما انظر: شرح المعلقات: ٧٨.

(٤) سيد من سادات العرب شريف النسب عظيم الحسب كثير الآل والاولاد.

(٥) سيد من سادات العرب اشتهر بكثر المال ونجابة الاولاد وشرف النسب.

(٦) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامرى مخضرم من المعمرين، ومات فى خلافة معاوية وله معلقة مشهورة، انظر: شرح المعلقات: ٢٢٦. (٧) ديوان لبيد بن ربيعة العامرى: ١٧١.

المبحث السادس
مراتب القدر وأركانه

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم: بيانه مراتب القدر والتى تسمى عند العلماء أحياناً بأركانه، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها كلها؛ لان بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هى:

١ - العلم.
٢ - الكتابة.
٣ - المشيئة.
٤ - الخلق.

المرتبة الأولى:

وهو الإيمان بان الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، ازلاً، وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، او بأفعال عباده، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلمهم وأرزاقهم، وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة.

وهذه المرتبة - وهى العلم السابق - اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة - القدرية الغلاة - والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقوله: ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ [سبا: ٣].

المرتبة الثانية الكتابة :

وهى الإيمان بأن الله كتب ما سبق علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة فى اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب فى أم الكتاب التى هى اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .[الحج : ٧٠]. وقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ .[التوبة : ٥١] .

وقال عن محاجة موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ .[طه : ٥١ ، ٥٢] .

وروى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال ، وعرشه على الماء » وقال النبى ﷺ : « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» .(١)

المرتبة الثالثة : المشيئة :

وهذه المرتبة تقتضى الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حركة ، ولا سكون ، ولا هداية ، ولا إضلال إلا بمشيئته ، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأدلة العقل ، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً ، من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] وقوله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] .

---

(١) مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى : ٤/٢٠٣٨، رقم : ٢٦٤٦ .

وقال ﷺ : « إن قلوب بنى آدم كلها بين صبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ، ومشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان ، وسيكون يفترقان فيما لم يكن ، ولا هو كائن ، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة ، وما لم يشأ كونه فإنه لا يكن لعدم مشيئته ، لا لعدم قدرته عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله ، ولكن لعدم مشيئته ذلك مثاله قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [الانعام : ٣٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الانعام : ١٠٧] .

مرتبة الخلق :

وهذه المرتبة تقتضى الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها ، وصفاتها ، وحركاتها ، وبان كل من سوى الله مخلوق موجد من العدم ، كائن بعد أن لم يكن ، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية ، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، واتفقت عليها الفطر ، والعقول السليمة ، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [تبارك : ٢] .

وأخرج البخارى فى خلق أفعال العباد عن حذيفة (١) رضي الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « إن الله يصنع كل صانع وصنعته » (٢) هذه هى مراتب القدر الاربع التى لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها .

وأفعال العباد داخلة فى عموم خلقه تعالى ، ولا يخرجها شىء من عموم قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فالأفعال هى من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً ، وهى من العباد فعلاً وكسباً ، فالله هو الخالق لأفعالهم ، وهم الفاعلون لها ، فنؤمن

---

(١) هو حذيفة بن اليمان العبسى من نجباء الصحابة ، وهو صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين كان يسأل رسول الله عن الشر ليتجنبه ، شهد مع النبى أحد وشهد فتوح العراق توفى بالمدائن : ٣٦هـ. انظر : اسد الغابة : ١ / ٤٦٨ ، سير أعلام النبلاء : ٢ / ٣٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل : ٢٥ باب أفعال العباد .

بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله ، وقدرته لكل شيء من الأعمال والأوصاف ، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر ، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة [١].

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [الصافات : ٩٦] قال المفسرون فى معنى (ما) فى الآية وجهان :

أحدهما : أن تكون بمعنى المصدر ، فيكون المعنى : والله خلقكم وعملكم .

والثانى : بمعنى الذى ، فيكون المعنى ، والله خلقكم وخلق الذى تعملونه بأيديكم من الأصنام ، وفى هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله) [٢] .

---

(١) انظر : المسائل والرسائل ، للإمام أحمد : (١/١٤٧ - ١٥٠) .

(٢) زاد المسير لابن الجوزى : ٧/ ٧٠ وانظر : جامع البيان للطبرى : ١٢ / ٧٥ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٤/ ١٥) .

المبحث السابع
وسطية أهل السنة فى مسألة أفعال العباد

هذه المسألة من أخطر مسائل القدر، ولقد زلت فيها أقدام، وحارت عقول وأفهام، فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله عز وجل مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا فى ذلك إلى طرفين وواسطة.

الطرف الأول (الجبرية): سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به فى باب القدر. والجبر هو: إسناد فعل العبد إلى الله [١] أو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى.[٢]

الطرف الثانى القدرية: وقولهم فى أفعال العباد أنها غير مخلوقة لله عز وجل، وأنهم هم المحدثون لها دونه وهذا أصل من أصول مذهب المعتزلة[٣].

الواسطة بين الطرفين (وهم أهل السنة):

قولهم فى أفعال العباد هو:

١ - أنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة.

٢ - وهى فعل للعباد على الحقيقة.

٣ - وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة فى وقوع الفعل منهم، والله هو الذى أقدرهم على ذلك، هذا هو مجمل قول أهل السنة، فى هذه المسألة، والذى عليه سلف الأمة وأئمتهم، قال محرر مذهب أهل السنة، وضابط أصوله وقواعده بحق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون: إن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله مفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول).[٤]

---

(١) التعريفات للجرجانى: ٧٤.
(٢) انظر: الملل والنحل: ١/ ٨٥.
(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ٧٧٢.
(٤) انظر: منهاج السنة ٢/ ٢٩٨.

المبحث السادس
مراتب القدر وأركانه

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم: بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء أحياناً بأركانه، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها كلها؛ لان بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هي:

١ - العلم.
٢ - الكتابة.
٣ - المشيئة.
٤ - الخلق.

المرتبة الأولى:

وهو الإيمان بان الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، ازلاً، وابداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بافعاله، او بافعال عباده، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض، وقد علم جميع خلقه قبل ان يخلقهم، فعلمهم وارزاقهم، وآجالهم واقوالهم، واعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، واهل الجنة.

وهذه المرتبة - وهي العلم السابق - اتفق عليها الرسل من اولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الامة، وخالفهم مجوس هذه الامة - القدرية الغلاة - والادلة على هذه المرتبة كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقوله: ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبا: ٣].

العلم والحق [١].

وهذا ما فعله أهل السنة ، فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين ، وجاء قولهم هدى بين الضلالتين ، ضلالة الجبر المفضى إلى تعطيل الأمر والنهى وإبطال الثواب والعقاب ، وضلالة نفى القدر الذى حاصله وجود خالقين من دون الله وتجويز أن يكون فى ملكه ما لا يقدر عليه ولا يريده . [٢]

---

(١) انظر : وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٣٨٣ .

المبحث الثامن
وسطية أهل السنة فى معنى إرادة الله ومشيئته ومحبته ورضاه

تباينت مواقف الفرق ، واختلفت أقوالها فى باب إرادة الله ومشيئته، فضل فى ذلك طوائف وهدى الله المعتصمين بكتابه ، وسنة نبيه لما اختلفوا فيه من الحق .

١ – فقالت المعتزلة : كل ما أراده الله وشاءه فقد أحبه ورضيه ، فسووا بين إرادته ومشيئته وبين محبته وجعلوهما باباً واحداً، ثم قالوا : الكفر والفسوق والعصيان لا يحبهما ولا يرضاهما ، فلا يريدها ولا يشاؤها فأخرجوها من محيط إرادته وعموم مشيئته (١) .

٢ – وقالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، والله هو الخالق الفاعل فى الحقيقة ، وإن الإنسان مجبور على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ، فكل ما وقع فى الكون يكون محبوباً مرضياً له (٢) ، سواء فى ذلك الإيمان والكفر والطاعات والمعاصى؛ إذ كل ذلك وقع بإرادته ومشيئته ، فسووا بين الإرادة والمحبة والرضى (٣) لذلك احتجوا بالقدر على المعاصى ، وقال قائلهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

٣ – وقال أهل السنة : ليس معنى إرادة الله ومشيئته هو معنى محبته ورضاه، بل بينهما فرق لابد من التنبه له ، فإن الإرادة فى كتاب الله نوعان :

أ – إرادة شرعية دينية : وهى تتضمن معنى المحبة والرضى ، كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٧ ، ٢٨] .

---

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة : ٤٦٤ .

(٢) انظر : شرح الطحاوية : ٢٧٩ .

(٣) نفس المصدر : ٢٧٩ .

ب – إرادة قدرية كونية خلقية : وهي التي بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات وذلك مثل الإرادة في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وقوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] وقالوا : وإن كان يريد المعاصي إرادة كونية قدرية فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ، ويكرهها وينهى عنها ، هذا قول السلف والأئمة قاطبة فيفرقون بين إرادته التي تتضمن محبته ورضاه، وبين إرادته ومشيئته الكونية القدرية التي لا يلزم منها المحبة والرضى (١).

وبهذا التمييز بين الإرادتين يمتاز قول أهل السنة عن قول كل من فريقي القدرية والمعتزلة ، والجبرية ، الذين سووا بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضى ، فضل المعتزلة إذ ذهبوا إلى القول بأنه يقع في ملك الله ما لا يريد ولا يشاء ، وهلك أهل الجبر بقولهم : إن الكفر والشرك والعصيان محبوبة لله مرضية عنده ومنشأ ضلال الفريقين إنما هو تسويتهم بين الإرادة والمشيئة، وبين المحبة والرضى وجعلهم معنى إرادته هو معنى محبته ورضاه .

وهدى الله أهل السنة لأحسن القول فميزوا وفرقوا بين الأمرين ، وخلصوا بالحق من بين الضلالتين ، وهذا عنوان وسطيتهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآية اعتدالهم واتزانهم . (٢) .

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٧ .

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق : ٣٨٧ .

المبحث التاسع

أقسام التقدير التى جاءت فى القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين

١ - التقدير العام : وهو تقدير الرب لجميع الكائنات ، بمعنى علمه بها ، وكتابته لها ومشيئته ، وخلقه لها ، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء » (١) .

٢ - التقدير البشرى : وهو التقدير الذى أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربهم وأشهدهم على أنفسهم بذلك ، والذى قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢].

٣ - وعن هشام بن حكيم (٢) أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : اتبتدأ الأعمال أم قضى القضاء ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه فقال هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون

---

(١) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب : حجاج آدم وموسى : ٤ / ٢٠٤٤ رقم الحديث : ٢٦٥٣ .

(٢) هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، له صحبة ورواية ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فكان عمر إذا رأى منكرا قال : أما ما عشت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون هذا توفى فى أول خلافة معاوية ، انظر : سير أعلام النبلاء : ٣ / ٥٢ .

لعمل أهل النار » (١) .

٤ - التقدير العمرى : وهو تقدير كل ما يجرى على العبد فى حياته إلى نهاية أجله ، وكتابه شقاوته ، او سعادته ، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق فى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً : « **إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمة أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله وشقى أو سعيد** » . (٢)

٥ - التقدير السنوى : وذلك فى ليلة القدر فى كل سنة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : ٤] وقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ [القدر : ٤ ، ٥] قيل : يكتب فيها - أى هذه الليلة - ما يحدث فى السنة من موت وحياة ، وعز وذل ، ورزق ومطر ، حتى الحجاج يقال : يحج فلان ، يحج فلان ، روى هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وكذا الحسن وسعيد بن جبير .

٦ - التقدير اليومى : ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] قيل فى تفسيرها : (شأنه ان يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويعطى ويمنع ، ويغنى ويفقر ، ويضحك ويبكى ، ويميت ويحيى (٤) إلى غير ذلك .

---

(١) اخرجه ابن ابى عاصم فى كتاب السنة بتحقيق الالبانى : ١ / ٧٣ ، قال الالبانى : إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٢) البخارى ، كتاب القدر ، باب ١ : ٧ / ٢٦٧ رقم الحديث : ٦٥٩٤ .

(٣) الإيمان بالقضاء والقدر : ٥٥ .

(٤) المرجع السابق : ٢٩ .

المبحث العاشر
ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإظهار ملامح الوسطية فى قضية الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية وأقوال العلماء، حتى يكون المؤمن قد وضع نفسه على الصراط المستقيم والاستقامة على شرع الله فى كل مسائله وأموره الدينية والدنيوية. ولا شك أن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة فى قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلى :

١ - أداء عبادة الله عز وجل : فالقدر مما تعبدنا الله سحانه وتعالى بالإيمان به.

٢ - الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك : فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والقدرية قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد لله.

٣ الشجاعة والإقدام : فالذى يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ولا يناله إلا ما كتب له، فيقدم غير هياب ولا مبال بما يناله من الاذى والمصائب فى سبيل الله. كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه :

أى يومى من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم ما قدر لا أرهبه ... وإذا قدر لا ينجى الحذر (١)

٤ - قوة الإيمان : فالذى يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله فى ذلك السبيل.

٥ الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب : فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدى الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح

---

(١) ديوان الإمام على : ٧٩، ٨٠.

موسوساً ، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات ، وبعضهم يقتل نفسه ، ولذلك يكثر الانتحار فى البلاد التى لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا ، والسويد ، والنرويج ، بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار ، وأسباب ذلك ترجع لأمور تافهة ، فبعضهم ينتحر بسبب تخلى خطيبته عنه ، وبعضهم بسبب رسوبه فى الامتحان؛ وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذى يحبه ، وقد يكون الانتحار جماعياً .

والعجيب فى الأمر أن غالبية المنتحرين ليسوا من الفقراء ، بل هم من الطبقة الغنية ، بل ويقع الانتحار فى الأطباء النفسيين الذين يظن أنهم يجلبون السعادة للناس [١] .

٦ - الهداية كما قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ [التغابن : ١١] .

٧ - الكرم : فالذى يؤمن بالقدر ، وأن الفقر والغنى بيد الله ، وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك فإنه ينفق ولا يبالى .

٨ - الإخلاص : فالذى يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس ، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له .

٩ - إحسان الظن بالله وقوة الرجاء : فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله ، قوى الرجاء به فى كل أحواله .

١٠ - الخوف والحذر من الله : فالمؤمن بالقدر على حذر من الله ، إذ لا يامن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء، والخواتيم علمها عند الله- عز وجل .

١١ - الإيمان بالقدر يقضى على كثير من الأمراض التى تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينهما ، وذلك مثل رذيلة الحسد ، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، لإيمان منه بأن الله هو الذى رزقهم وقدر لهم ذلك ، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحاناً منه عز وجل وانه حين يحسد غيره ، إنما يعترض على القدر [٢] .

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم الحمد : ٢٥ .

(٢) انظر : مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤ : ٢٥٠ مبحث وسطية اهل السنة فى القدر .

فإن القوم أسرفوا فى تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التى تختص بالمخلوق.

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك ، وكتابهم الذى بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك ، ونحن نذكر فيما يلى نماذج من أقوالهم التى شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه .

١ - فمن ذلك : (وصفهم الله بالفقر) .

وهى صفة لا تليق بخالق البشر ، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم ؛ يقول عز وجل فى ذلك : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران : ١٨١).

٢ - ومن ذلك : (وصفهم له بأن يده مغلولة) .

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

٣ - وصفوه بأنه : (يحزن ، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول : (ورأى الرب أى شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذى خلقه ، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنى حزنت أنى علمتهم)[١] .

٤ - ووصفوه : (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك .

جاء فى (سفر الخروج) : (أذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك ، لا تصنع عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ، وترابك الذى داخل أبوابك ؛ لأن فى ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر ، وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدسه)[٢] وفى سفر (التكوين) : (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل واستراح فى اليوم

---

(١) إصحاح (٦) ، فقرة (٥- ٨) .

(٢) إصحاح (٢٠) ، فقرة (١ - ١٧) .

٢٠ - الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء : فالعباد فيهم قصور ، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر ، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه .

٢١ - عدم اليأس من انتصار الحق : فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وإن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة ، فلا يدب اليأس إلى قلبه ، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل .

٢٢ - علو الهمة ، وعدم الرضا بالدون ، وعدم الرضا بالواقع الأليم، فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر ، ولا يستسلم له محتجاً بالقدر ، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر ؛ لأنه من المصائب ، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب ، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته . (١)

٢٣ - الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٢١٦] .

وما أجمل قول الشاعر :

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنه (٢)

وقول الآخر :

تجرى الأمور على حكم القضاء وفي ... طي الحوادث محبوب ومكروه

وربما سرني ما كنت أحذره ... وربما ساءني ما كنت أرجوه (٣)

٢٤ - ومن ثمراته عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين : فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب ، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه ، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له ، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة

---

(١) الإيمان بالقدر والقدر : ٢٩ .

(٢، ٣) انظر : جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطي : ٣/ ٥٢ .

وعزة النفس ، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم ، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين ، وهذا أس فلاحه وراس نجاحه ، ومن جميل ما يذكر في هذا المعنى ما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله :

أفادتني القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة

تحز ربحاً وتغني عن بخيل ... وتنعم في الجنان بصبر ساعة [١]

٢٥ - سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال : فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدف منشود ، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها ، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين ، والعباد القانتين المتبعين ، من سكون القلب ، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ، ولا يدور حول ما يشبهه خيال ، فلهم في ذلك الشان القدح المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول : (أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر)[٢] .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) [٣].

ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن : (ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة[٤]) .

بل أنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال ، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والاطباء من غير المسلمين، فكم من

---

(١) ديوان الإمام علي : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) جامع العلوم والحكم : ١/ ٢٨٧ سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ٩٧ .

(٣) الشهادة الزكية في ثناء الائمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي : ٣٤ .

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية جهاده ، ودعوته ، عقيدته احمد القطان محمد الزين : ١٠١ .

الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب ، ويذهب به العجب كل مذهب ، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير – كالسرطان مثلاً – فترى هذا الطبيب يحتار فى كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى ، وتجده يمهد الطريق ، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر ، وما أن يعلمه بمرضه ، ويخبره بعلته – إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية ، وصدر رحب، وسكينة وهدوء . لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا فى هذا الشأن ، معبرين عن دهشتهم ، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين ، وارتفاع معنوياتهم ، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة (١) .

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره :

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا فى ذلك – الكاتب المشهور (ر ن س بودلى) مؤلف كتابى (رياح على الصحراء) و (الرسول) وأربعة عشر كتاباً أخرى ، والذى أورد رأيه (ديل كارنيجى) فى كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) فى مقالة بعنوان (عشت فى جنة الله) يقول بودلى : (فى عام ١٩١٨ م وليت ظهرى العالم الذى عرفته طيلة حياتى ، وبممت شطر افريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب فى الصحراء ، وقضيت هنالك سبعة أعوام ، واتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدى زيهم ، وآكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغنام ، وأنام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقت فى دراسة الإسلام ، حتى إننى ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول) ، وكانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى ، وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة، وقد تعلمت من

---

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر : (٣٢).

عرب الصحراء كيف اتغلب على القلق ، فهم بوصفهم مسلمين – يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة ماخذا سهلاً هيناً ، فهم لا يتعجلون أمراً ، ولا يلقون بانفسهم بين براثين الهم قلقاً على أمر إنهم يؤمنون بان (ما قدر يكون) وان الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) وليس معنى هذا انهم يتواكلون او يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الايادى كلا) (١) .

ثم اردف قائلاً : (ودعنى اضرب لك مثلاً لما أعنيه) هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادى (الرون) فى فرنسا ، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً ، فقد هزوا اكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة : (قضاء مكتوب) لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء ، دون أن تبدو من احدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خليقين بان نفقد كل شيء ، ولكن حمداً لله وشكراً ، فإن لدينا نحو اربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدا بها عملنا من جديد) (٢) .

وثمة حادثة اخرى ، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما ، فانفجرت إحدى الإطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار إطار احتياطى ، وتولانى الغضب ، وانتابنى القلق والهم ، وسالت صحبى من الأعراب : وماذا وعسى أن نفعل ؟ فذكرنى بان الاندفاع إلى الغضب لن يجدى فتيلاً ، بل هو خليق ان يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاثة إطارات ليس إلا ، لكنها ما لبثت ان كفت عن السير ، وعملت أن البنزين قد نفد، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة احد من رفاقى الأعراب ، ولا فارقهم هدوؤهم ، بل

---

(١) انظر : الإيمان بالقضاء والقدر : (٣٢) .

(٢) دع القلق وابدا الحياة ، ديل كارنيجى (٢٩٠، ٢٩١) .

مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام (١) .

وبعد أن استعرض بودلى تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله : (قد أقنعتنى الأعوام السبعة التى قضيتها فى الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرضى النفوس، والسكرين الذين تحفل بهم أمريكيا وأروبا - ما هم إلا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساساً لها، إننى لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش فى الصحراء ، بل هنالك فى جنة الله وجدت السكنية ، والقناعة ، والرضا (٢) .

وأخيراً أختم كلامه بقوله : (وخلاصة القول أننى بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتى الصحراء - مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقبل الحوادث التى لا حيلة لى فيها بالهدوء والامتثال والسكنية، ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة اعصابى أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير) (٣) .

وبهذا نكون قد أوضحنا ملامح وسطية القرآن فى باب الاعتقاد والله الهادى إلى سواء السبيل .

ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى الله كاتب هذه الأسطر بالدعاء فى ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة والشهادة فى سبيل الله تعالى، وان يكرمه بالصدقة الجارية بعد وفاته إنه ولى ذلك والقادر عليه .

---

(١) نفس المصدر السابق : ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢ ، ٣) نفس المصدر السابق : ٢٩١ - ٢٩٥ .